التَّعليقُ

المُمتع على القَوَاعِدِ الأربع

المُقَدِّمَة

كَتَبَهُ:

أَبُو حَفْصٍ الأَزْدِيّ

(المقدِّمة)

التَّعليقُ المُمتع على القواعِدِ الأَربع

كَتَبَهُ:

أَبُو حَفْصٍ الأَزْدِيُّ



١٤٣٩ للهِجْرَةِ



قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجهُ الله، لا يتعلمه إلا ليصيبَ به عرَضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يومَ القيامة»[1] يعني ريحها، وقال ﷺ: «لا تَعَلَّموا العلم لتُباهوا به العلماء، أو تُماروا به السفهاء، ولا تخيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: «بشِّر هذه الأمة بالتيسير، والسناء، والرفعة بالدين، والتمكين في البلاد، والنصر -هذا سيحصل ولكن- فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة من نصيب»[3]، ومن خلال هذه الأحاديث ننبّه على مسائل عظيمة نحتاج إلى تصحيحها في باب النيات قبل الشروع في المقصود:

أول المسائل: وأعظمها أن على المسلم أن تكون غايته من طلب العلم هي التعبد لله جل وعلا، خاصة في باب علم العقيدة الذي نحن فيه! ينبغي أن يكون همُّهُ من دراسته له أن يوحِّد الله جل وعلا حق التوحيد ويفرده

---

[1] أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير (٤٦٧/٣) وابن حبان في صحيحه كتاب العلم ذكر وصف العلم الذي يتوقع دخول النار في القيامة لمن طلبه (٢٧٩/١) برقم: (٧٨) والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٣٨٥/٢) وقال فيه محمد بن سلمة بن قربا قال الدار قطني: «ليس بالقوي»، وصححه النووي في تحقيق رياض الصالحين (٤٤٧) فقال: «إسناده صحيح» وكذا قال الذهبي في الكبائر (٢٨٤).

[2] قال الذهبي في الكبائر (٢٨٥) رواه ابن وهب عن جابر فأرسله، وأخرجه ابن حبان في صحيحه كتاب العلم ذكر وصف العلم الذي يتوقع دخول النار في القيامة لمن طلبه (٢٧٨/١) برقم: (٧٧) واضطرب فيه قول المنذري في الترغيب (٩٢/١).

[3] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان باب إخلاص العمل لله ﷻ وترك الرياء (٣٣٤/٥) برقم: (٦٤١٦)، وغيره.

ﷻ بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ويَكفُرَ بكل ندٍ وشريك له ﷻ، وباختصار فليكن همه إصلاح توحيده حتى يلقى الله وهو راض عنه راحمًا له مدخلاً له في فضائل أهل التوحيد التي وردت بها نصوص الكتاب والسنة، ولذلك -أقولها بصراحة- إذا درس طالب العلم كتابًا -خاصة في الإعتقاد- ثم لم يجد أثر ذلك في صلاته وفي قراءته للقرآن وإستماعه له فلا خير في دراسته لهذا الكتاب!، واعلموا يا أحبة أن أول ما يظهِرُ أثر العلم النافع على العبد في صلاته في خشوعه وسكون قلبه بين يدي ربه واستشعاره لتمام ربوبيته ﷻ واستحضار تمام التعبد له.. فالصلاة هي الميزان -خاصة لدارس التوحيد!- يقيم بها العبد دراسته ويحدد نجاحه فيها من فشله، فخذها فائدة وعضّ عليها بالنواجذ!

المسألة الثانية: وأنصار الخلافة أحوج الناس إلى هذه المسألة!، ألا وهي قوله ﷺ: «لا تَعلَّموا العلم لتباهوا به العلماء، أو تماروا به السفهاء»[٤] فليحذر طالب العلم أن يتعلم التوحيد ليُماري به السفهاء، والشيطان قد يلبّس عليك ويقول لك أن غرضك من هذه النيّة هو دعوة المخالفين إلى الحق والرد على شبهات الضلال في التوحيد -مثل عبّاد القبور وعبّاد الدستور... إلخ-، فإذا سوّلت لك نفسك شيئًا من ذلك فقل لها: أنا ما خُلقت إلا لعبادة الله فطلبي للعلم ينبغي أن يكون من أجل تحقيق هذه الغاية بأن أوحِّد الله في نفسي أولاً وأكفر بالطاغوت وأعرفَ

[٤] سبق تخريجه، انظر حاشية رقم (٢).

لله حقَّه عليَّ ثم تأتي الدعوةُ بعد ذلك. فاحذر أخي رعاك الله من تلاعب الشيطان وخفِيِّ مكره!

ثالثُ المسائل وآخرها: -وهي فائدة عزيزة تخفى على أكثر الناس!- أن تعلم أن مِن أقصى درجات العبودية لله هي درجة "مراغمة أعدائه"!! وهذه المنزلة هي منزلة خواصّ أهل التوحيد!، ووجهها فيما نحن فيه الآن أن يستحضر طالب العلم أنه بتعلمه للتوحيد وإفراده لله ﷻ أنه بذلك يُغيظ أعداء الله تعالى كما قال ابن جماعة في كتابه "تذكرة السامع والمتكلم": «والعاقل يعلم أن أبرك الأيام عليه يوم يزداد فيه فضيلةً وعلمًا ويُكسِب عدوه من الجن والإنس كربًا وغمًّا!»، وجاء في الأثر: «فقيه واحد أشدُ على الشيطان من ألف عابد»[٥] ويشهد له قول رسول الله ﷺ:

---

[٥] أخرجه الترمذي في العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٤٥٠/٧) برقم: (٢٦٠٥) وقال: «هذا حديث غريب ولا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وابن ماجه في المقدمة باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٨١/١) برقم: (٢٢٢) وفيه روح بن جناح، وهو ضعيف جدًا، متهم بالوضع. والطبراني في المعجم الكبير (٧٨/١١) برقم: (١١٠٩٩)، وكذا بمسند الشاميين (١٦١/٢) برقم: (١١٠٩)، وابن المقرئ في معجمه (٢٩٠/١) برقم: (٩٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٧/٢) برقم: (١٧١٥)، والديلمي في الفردوس (١٤٨/٣) برقم: (٤٣٩٨)، والشجري في ترتيب الآمالي الخميسية (٦٥/١) برقم: (٢٣٢) و (٢٣٣) و (٧١/١) برقم: (٢٥٥)، وابن ماسي في الفوائد (٩٦/١) برقم: (٢٩)، والفريابي في الفوائد برقم: (٢١)، وأبو طاهر السلفي في السادس والعشرون من المشيخة البغدادية (٣٥/١) برقم: (٣١)، وابن حبان في الضعفاء (٣٠٠/١) برقم: (٣٤٦) ترجة روح بن جناح وقال: «منكر الحديث جدًا»، وابن عدي (١٤٥/٣) برقم: (٦٦٦) ترجمة روح بن جناح الشامي وقال: «هو ممن يكتب حديثه»، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله باب تفضيل العلم على العبادة (١٢٥/١) برقم: (١٢١) و (١٢٧/١) برقم: (١٢٣) جميعهم

«إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[٦]، وذلك لأن العابد الجاهل يمكن للشيطان أن يتلاعب به بخلاف العالم فإنه قد عرف حق الله عليه وعمل على بصيرة من أمره، وانظر في هذا الباب فصلاً نفيسًا للإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "مدارج السالكين"[٧] تكلّم فيه عن مراتب تسلّط الشيطان على العبد وذلك في سبعِ عقبات مَن تأملها رأى الفرق بين العابد والعالم!!

مرفوعًا عن ابن عباس، وأخرجه ابن عبد البر مرفوعًا عن أبي هريرة في جامع بيان العلم وفضله باب فضل العلم على العبادة (١٢٧/١) برقم: (١٢٤).

[٦] أخرجه أبو داود في سننه كتاب العلم باب الحث على طلب العلم (٣١٧/٣) برقم: (٣٦٤١) قال الهيثمي المكي في الزواجر (٩٦/١) وفي الحديث اختلاف كبير والجمهور على قبوله، وحسنه ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح (١٥١/١). وقال العظيم ابادي في عون المعبود (٤٣/١٠): «فيه كثير بن قيس الشامي قال ابن حجر ضعيف».

[٧] **تَدَرُّجُ الشيطان في الإغواء**: النظر الرابع: نظره إلى الآمر له بالمعصية، المُزَيِّن له فعلها، الحاضّ له عليها وهو شيطانه الموكَّل به. فيفيده النظر إليه، وملاحظته: إتخاذه عدوًا، وكمال الإحتراز منه، والتحفُّظ واليقظة: والإنتباه لما يريد منه عدوُّه وهو لا يشعر. فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض. لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه؛ وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه. فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردَت نار عداوته واستراح. فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسَلِمَ معه نور الإيمان طَلَبَه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة. إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه. وإما بالتعبُّد بما لم يأذن به الله: من الأوضاع والرسوم المحدِثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئًا. والبدعتان في الغالب متلازمتان قَلَّ أن تَنْفَكَّ إحداهما عن الأخرى كما قال بعضهم: «تزوجت بدعةُ

الأقوال ببدعة الأعمال. فاشتغل الزوجان بالعرس فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيشون في بلاد الإسلام تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى». [يُغلب على الظن: أن هذا من كلام الشيخ الإمام ابن القيم عليه رحمة الله]. وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة. فتولَّد بينهما خسران الدنيا والآخرة. فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بِنُورِ السُنَّة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان. وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحدٍ من هذا الضرب! فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل، وبغوه الغوائل، وقالوا مبتدع محدِث. فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طَلَبَه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر فإن ظفر به فيها زيَّنها له، وحسّنها في عينه وسوّف به، وفتح له باب الإرجاء وقال له: الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال [يعني أعمال الفسوق والعصيان. والمعنى المراد: أن الشيطان يقول له -عند فتح باب الإرجاء- إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصي، وهذا وما بعده هو معنى الإرجاء الذي هو من شر البدع التي أفسدت الدين]، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله: «لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة» والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه لمناقضتها الدين ودفعها لما بعث الله به رسوله وصاحِبُها لا يتوب منها ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضَمُّنها القول على الله بغير علم ومعاداة صريح السنة ومعاداة أهلها والإجتهاد على إطفاء نور السُنَّة وتولية من عزَلَهُ الله ورسوله وعَزْلِ من والاه الله ورسوله واعتبار ما ردّه الله ورسوله ورد ما اعتبره وموالاة من عاداه ومعاداة من والاه وإثبات ما نفاه ونفي ما أثبته وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق يجعل الحق باطلاً والباطل حقًا، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب وطلب العوج لصراط الله المستقيم. وفتح باب تبديل الدين جملة: «وشر البدع وأنكاها: هو التقليد الأعمى، والعمل في العقائد والعبادات والأحكام والشرائع والأذكار والأوراد بما وجد عليه الآباء والشيوخ على غير هدى ولا بصيرة، يستمد نورها من الفقه في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ. فما وقع الناس قديمًا ولا حديثًا في شيء من الشرك في العبادة والشرك في الإتباع والتشريع إلا من بدعةِ هذا التقليد». فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين كما تنسلُّ الشعرة من العجين. فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالُّون في ظلمة العمى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠ ﴾ [النور: ٤٠]؛ فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طَلَبَه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر: فكال له منها بالقفزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشِيت من اللمم، أو ما عملت فإنها تكفَّرُ باجتناب الكبائر وبالحسنات ولا يزال يهوِّن عليه أمرها حتى يصير عليها فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه. فالإصرار على الذنب أقبح منه ولا كبيرة مع التوبة والإستغفار ولا صغيرة مع الإصرار وقد قال ﷺ: «إياكم ومحقِّرات الذنوب -ثم ضرب لذلك مثلاً بقومٍ نزلوا بفلاة من الأرض فأعوزهم الحطب فجعل هذا يجيء بِعُود، وهذا بِعُود حتى جمعوا حطبًا كثيرًا فأوقدوا نارًا وأنضجوا خبزتهم. فكذلك فإن محقِّرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه». فإن نجا من هذه العقبة بالتحرُّز والتحفظ، وداوم على التوبة والإستغفار وأتبَعَ السيئة الحسنة، طَلَبَهُ على:

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها: فأشغله بها عن الإستكثار من الطاعات وعن الإجتهاد في التزوُّد لمعاده ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه: تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية. ولو عرف السِعر لما فوَّت على نفسه شيئًا من القربات ولكنه جاهل بالسعر فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والإستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشتري، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته وضن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح. طَلَبَه العدو على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات: فأمره بها وحسّنها في عينه وزينها له وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا، لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب طمع في تخسيره كماله وفضله ودرجاته العالية فشغله بالمفضول عن الفاضل، والمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضي له. ولكن أين اصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول. فإن نجا منها بفقه الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤوسها، وذروةٍ وما دونها، كما في الحديث الصحيح: «سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللَّهُمَّ أنت ربي لا إله إلا أنت -الحديث» وفي الحديث الآخر: «الجهاد ذروة سنام الأمر» ، وفي الأثر الآخر: «إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن» ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

والحمد لله رب العالمين.

وكَتَبَهُ:

أَبُو حَفْصٍ الأَزْدِيُّ

فإذا نجا منها لم يبقى هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه. وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير. فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو عليه بخيله ورجله وظاهَر عليه بجنده وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط. وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها فإنه كلما جد في الإستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جدّ العدو في إغراء السفهاء به فهو في هذه العقبة قد لبس لامة الحرب وأخذ في محاربة العدو لله فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين وهي تسمى عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التام. ولا شيء أحب الى الله من مراغمة وليِّه لعدوِّه، وإغاظته له. وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه أحدها قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠]؛ سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه. والله يحب من وليِّه مراغمة عدوه، وإغاظته كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠ ﴾ [التوبة: ١٢٠]؛ وقال تعالى في مثل رسول ﷺ وأتباعه: ﴿ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ فمُغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له فموافقته من كمال العبودية. وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان» وفي رواية: «ترغيما للشيطان» وسماهما "المرغمتين". فمن تعبد الله بمراغمة عدوِّه، فقد أخذ من الصِدِّيقية بسهم وافر. وعلى قدر محبة العبد لربه، وموالاته ومعاداته لعدوِّه، يكون نصيبه من هذه المراغمة ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله. لما في ذلك من إرغام العدو وبذل محبوبه من نفسه وماله لله ﷻ. وهذا باب العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول. انتهى من مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢٣٧/١).